

حقيقة الرابطة عند الصوفية في ميزان الشريعة الإسلامية

آغيم بكيري - جمهورية مقدونيا الشمالية

المقدمة

إن من أعظم مقاصد الشريعة الإسلامية تجريد التوحيد لله رب العالمين، وتحقيق إخلاص العبادة له وحده لا شريك له، وسدّ كل ذريعة تفضي إلى الشرك أو التعلق بغير الله تعالى. ومع توالي القرون وظهور الطرق والمسالك الصوفية المتأخرة، نشأت اصطلاحات وممارسات تعبدية وروحية غريبة عن هدي القرون المفضلة، من أخطرها وأكثرها إثارة للجدل ما يُعرف عند أهل التصوف بـ «**الرابطة**» أو «**رابطة المرشد**» و«**تصوّر الشيخ**»[1].

سنتناول في هذا المقال مسألة الرابطة الصوفية دراسةً علميةً؛ تشمل بيان مفهومها ونشأتها التاريخية، وكيفيتها بما في ذلك مسألة استخدام الصور الفوتوغرافية للشيخ أداةً لها، وانتشارها، وأبرز الطرق المتبنّية لها، مع استعراض شبهات وأدلة القائلين بها والرد عليها، وبيان موقف أهل السنة والجماعة وأدلة بطلانها في ضوء الكتاب والسنة ومنهج سلف الأمة.

تعريف الرابطة الصوفية، وكيفيتها، ونشأتها

أولاً: تعريف الرابطة لغةً واصطلاحًا

الرابطة لغةً: مشتقة من مادة (رَبَطَ)، والربط هو الشد والوصل والتقييد والالتزام بالأمر والمكان.

والرابطة في اصطلاح الصوفية: ربط قلب المريد بروحانية شيخه واستحضار صورته وخياله في الذهن والقلب أثناء الذكر والخلوة والعبادة، بهدف استمداد الفيض الروحي والمعارف والأنوار الإلهية التي يزعمون أنها تنحدر من الحضرة الإلهية إلى قلب النبي ﷺ، ثم إلى روحانية الشيخ، ومنها إلى قلب التلميذ المريد[2].

ثانيًا: كيفية أداء الرابطة واستخدام الصورة الفوتوغرافية

قرر شيوخ الطرق الصوفية هيئات مخصوصة لأداء الرابطة:

١- الهيئة الجسدية والتخيلية: يجلس المريد مطبقًا عينيه، ملصقًا لسانه بسقف حلقه، مستحضرًا صورة الشيخ في خياله كأنه جالس بين عينيه أو مرتسم على صفحة قلبه، متوجهًا إليه بالتعظيم والمحبة لاعتقاد أنه ميزاب الفيوضات الإلهية وواسطة الوصول[3].

٢- استخدام الصورة الفوتوغرافية المطبوعة: درجت بعض فروع الطرق الصوفية المتأخرة والمعاصرة على استخدام الصور الفوتوغرافية المطبوعة للشيخ المرشد؛ حيث يُعطى المريد المبتدئ صورة شيخه ليتأملها وينظر إليها مليًا لتنطبع ملامحه في ذاكرته، حتى يسهل عليه استحضارها عند إغماض عينيه للذكر، أو تعليقها في أماكن العبادة والخلوات لدوام استشعار الرابطة، وهو ما زاد من خطورة هذه الممارسة وقربها من تعظيم الصور والتماثيل[4].

ثالثًا: النشأة التاريخية للرابطة

لم يكن لمفهوم الرابطة بهذا المعنى أي وجود في القرون

١- موسوعة الفرق المنتسبة إلى الإسلام، إشراف الشيخ غلوي بن عبد القادر السقاف، موقع الدرر السنية، ٢٥٢/٨.

٢- المصدر السابق.

٣- المصدر السابق، ٤٨٥/٨.

٤- المصدر السابق، ٢٥٣/٨.

المفضلة من عهد الصحابة والتابعين؛ وإنما بدأ التقعيد المنظم للمشيخة والأوراد الخاصة في القرون اللاحقة، ثم تبلورت مسألة الرابطة وتصوير الشيخ تدريجيًا لدى متأخري الصوفية[٥].

وقد صُنفت في تقريرها رسائل مستقلة، ولا سيما في البيئة النقشبندية المتأخرة، حيث امتزجت بمفاهيم فلسفية ورياضات تخيلية دخيلة حول الوساطة واستنزال الأرواح والفيوضات[٦].

انتشار الرابطة وأبرز الطرق الصوفية المطبقة لها

انتشرت ممارسة الرابطة وتصوير الشيخ في عدة طرق صوفية، وأبرزها:

١- الطريقة النقشبندية: تعد النقشبندية من أشد الطرق اهتمامًا بالرابطة وإلزامًا للمريدين بها؛ إذ تجعلها شرطًا لصحة الذكر الخفي وحلقات الختم، ويعتبرون الانقطاع عن تصور الشيخ انقطاعًا عن الإمداد الإلهي، وقد توسع فرعها الخالدي في تفصيل أحكامها ورسم مراتبها[٧]. أما في البلقان فقد بدأ انتشار بدعة الرابطة من طريق الجماعة السليمانية[٨].

٢ - الطريقة الشاذلية: اعتنت فروع من الشاذلية بتقرير تعلق المريد القلبي بشيخه والانقطاع إليه لاستدرار الفتح القلبي[٩].

٣ - الطريقة التجانية: شددت التجانية على حصر الارتباط بشيخ الطريقة واعتقاد أنه الواسطة المنفردة لفيوضات النبوة، وحرّمت على المريد الالتفات لغيره من المشايخ[١٠].

٤ - طرق ومدارس أخرى: كالطريقة الخلوتية، وبعض المدارس المتأثرة بالتصوف التي نقلت ممارسة تصور الشيخ في القلب بالسنوات المتطاولة واستحضاره في سائر الأحوال[١١].

شبهات الصوفية وأدلتهم على مشروعية الرابطة ومناقشتها

اعتمد القائلون بمشروعية الرابطة على تأويلات لبعض النصوص الشرعية، ومن أبرزها:

الشبهة الأولى: الاستدلال بآية الوسيلة

استدلوا بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، مدّعين أن اتخاذ الشيخ المرشد ورابطته القلبية هو من أعظم الوسائل للوصول إلى الله تعالى[١٢].

الرد: قرر أئمة التفسير كابن جرير الطبري وابن كثير وإجماع السلف أن «**الوسيلة**» في الآية هي التقرب إلى الله بالأعمال الصالحة والطاعات المأذون بها شرعًا[١٣] وبيّن الشنقيطي أن تفسير الوسيلة بالأشخاص والوسائط البشرية تحريف لمعاني القرآن ومضاهاة لفعل المشركين الذين جعلوا الشفعاء بينهم وبين ربّهم[١٤].

الشبهة الثانية: الاستدلال بآية الاتّباع

استدلوا بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، قائلين إن الاتّباع الكامل لا يتم إلا باستحضار صورة المتبوع حسًا أو خيالاً[١٥].

الرد: الاتباع المأمور به في الآية هو الانقياد لشريعة النبي ﷺ وسنته وعقيدته، ولم يأمر الشرع أبدًا باستحضار الصور الخيالية للأشخاص في مقامات العبادة والذكر، فصرف الاتباع إلى مجرد تخيل صورة الشيخ ابتداع وتحريف صريح لمقصد الآية[١٦].

الشبهة الثالثة: الاستدلال بخطاب التشهد

زعموا أن قول المصلي: «**السلام عليك أيها النبي**» يستدعي تشخيص صورة النبي ﷺ في الذهن، وقاسوا استحضار الشيخ عليه.

الرد: صيغة التشهد تعبد توقيفي علّمه النبي ﷺ لأصحابه للدعاء له وإلقاء السلام عليه، ولم يكن الصحابة يتخيلون صورته ولا يعقدون رابطة تطلب الفيض من ذاته حال صلاتهم، وقياس استحضار الشيوخ المحدث على التشهد قياس باطل وفاسد الاعتبار[١٧].

خطر الرابطة وموقف أهل السنة تجاهها

تشتمل ممارسة الرابطة على مفاسد عقدية وتربوية عظيمة، وهو ما جعل علماء أهل السنة ينكرونها إنكارًا شديدًا[١٨]:

٥- الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، عبد الرحمن عبد الخالق، ص ٣١٦.
٦- موسوعة الفرق المنتسبة إلى الإسلام، ٢٥١/٨.
٧ - المصدر السابق، ٢٥٢/٨.
٨ - جماعة دينية ذات جذور نقشبندية مجددية، ويعد وجودها في البلقان حديثًا نسبيًا، بخلاف النقشبندية والخالدية اللتين لهما تاريخ عثماني قديم في المنطقة. وتشير المصادر المتاحة إلى أن نشاط السليمانيين في البلقان توسع منذ نهاية التسعينيات، مع التركيز على التعليم الديني، ودورات القرآن، والسكنات والأنشطة التعليمية، ولا سيما في مقدونيا الشمالية وكوسوفو وألبانيا والبوسنة.
٩ - مجموعة رسائل التوجيهات الإسلامية لإصلاح الفرد والمجتمع، محمد جميل زينو، ١٣٥/٣.
١٠- موجز دائرة المعارف الإسلامية، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ٢١٧٩/٧.
١١- موسوعة الفرق المنتسبة إلى الإسلام، ٤٨٥/٨.
١٢- بيان المعاني، الشيخ عبد القادر ملا حويش، ٣٨١/٣.
١٣- تفسير الطبري وابن كثير، [المائدة: ٣٥].
١٤- تفسير أضواء البيان، الشنقيطي، [المائدة: ٣٥].
١٥ - موسوعة الفرق المنتسبة إلى الإسلام، ٢٥٢/٨.
١٦ - المصدر السابق ٢٥٢/٨.
١٧- بيان المعاني، ٣٨١/٣.
١٨-موسوعة الفرق المنتسبة إلى الإسلام، ٢٥٤/٨.

١ - الوقوع في الشرك بالوساطة والتعلق بالمخلوق: تقرر الرابطة ضرورة وجود وسيط بشري لنزول الفيوضات الإلهية، وهو ما يماثل عقيدة المشركين الذين قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]؛ وقد بيّن شيخ الإسلام ابن تيمية إجماع المسلمين على كفر وضلال من أثبت وسائط بين العباد وربهم يدعونهم ويتوكلون عليهم[١٩].

٢- صرف مقام الإحسان لغير الله: إن مقام الإحسان الشرعي هو كما في الحديث: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» رواه مسلم، بينما توجه الرابطة استحضار القلب ومراقبته إلى الشيخ وصورته بدلاً من استحضار عظمة الله تعالى واطلاعه علينا[٢٠].

٣ - الغلو وتعطيل العقول: تؤدي الرابطة إلى استلاب عقل المريد وغرس التبعية المطلقة للشيخ، حتى ادّعى بعضهم أن الغفلة عن صورة الشيخ أشد من ارتكاب المعاصي[٢١].

فتاوى علماء أهل السنة:

بيّن الإمام شاه ولي الله الدهلوي والشيخ محمد إسماعيل الدهلوي في «**الصراط المستقيم**» أن هذه الرابطة ممارسة محدثة لا أصل لها وقريبة جدًا من الشرك الصريح[٢٢].

أفتى علماء بغداد كالإمام محمود الآلوسي ونعمان الآلوسي ومحمود شكري الآلوسي، ببطلان الرابطة النقشبندية ومخالفتها لهدي السلف الصالح[٢٣].

وقررت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء في فتاواها بطلان اتخاذ الشيوخ وسائط واستحضار صورهم في العبادة والذكر، وبيّنت أنها من البدع المنكرة المفضية إلى الشرك[٢٤].

الأدلة على بطلان الرابطة

تتعدد الأدلة الشرعية والعقلية على بطلان الرابطة واستحضار صور الشيوخ:

١- الابتداع ومخالفة السنة: قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» متفق عليه، ولم يكن النبي ﷺ ولا أصحابه الكرام يستحضرون صور بعضهم في الذكر والعبادة، فدلّ على أن الرابطة بدعة محدثة مردودة[٢٥].

٢ - الأمر بربط القلوب بذكر الله وحده: قال تعالى:﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، فالواجب أن يمتلئ قلب الذاكر بذكر الله وخشيته لا بتصور المخلوقات وصورهم الذهنية والمطبوعة[٢٦].

٣ - التشبه بعبادة الصور والأوثان: إن استحضار صورة المرء الصالح (ذهنيًا أو عبر صورة مطبوعة) لغرض استجلاب الخشوع والفيوضات يشابه الأصل الذي دخل منه الشرك على قوم نوح حين عظّموا صور الصالحين، والشريعة جاءت بحسم هذه الذرائع الشركية[٢٧].

٤ - التناقض الظاهر مع مقاصد العبادة: استحضار صورة الآدمي في الصلاة يفسد الخشوع وتبطل به صلاة العبد إذا قصد تعظيمه، فكيف يُجعل ما يفسد أعظم العبادات طريقًا وأصلًا في سلوك العبد وذكره لربّه؟![٢٨].

٥ - إبطال دعوى الإحاطة وعلم الغيب: زعم المتصوفة أن الشيخ حاضر بروحانيته مطّلع على قلوب مريديه في آن واحد يناقض صريح قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦]، فالإحاطة التامة من خصائص الربوبية[٢٩].

الخاتمة

الرابطة الصوفية بمختلف صورها -سواء كانت تخيلاً ذهنيًا أو عبر الاستعانة بالصور الفوتوغرافية والمطبوعة- ممارسة محدثة غريبة عن الإسلام نبتت لدى متأخري الطرق الصوفية، لا سيما النقشبندية.

والأدلة التي يستند إليها دعاة الرابطة تقوم على تأويلات باطنية فاسدة لآيات القرآن، كحمل لفظ الوسيلة والاتّباع على اتخاذ الشيوخ وسائط وفيوضات. وتنطوي الرابطة على مفاسد عقدية جسيمة كتعليق القلوب بالمخلوقين، ومضاهاة عبادة الصور، وتضييع مقام الإحسان الشرعي القائم على مراقبة الله وحده.

والواجب الشرعي على المسلم تجريد الإخلاص والتوحيد لله، والتزام هدي النبي ﷺ وأصحابه، وتوقير العلماء والصالحين بالاقتداء بعملهم الصالح لا بربط القلوب بصورهم وذواتهم.

١٩-رسم الوداد في إيضاح تحفة الأولاد في توحيد رب العباد، غازي بن سالم أفلح،١٠٩/١.
٢٠- مجموعة رسائل التوجيهات الإسلامية لإصلاح الفرد والمجتمع، ١٣٤/٣.
٢١- آراء الصاوي في العقيدة والسلوك، أسماء بنت محمد ملا حسين، ٤٠/١.
٢٢- موسوعة الفرق المنتسبة إلى الإسلام، ٢٥٤/٨.
٢٣- المصدر السابق، ٢٥٣/٨.
٢٤- موسوعة الفرق المنتسبة إلى الإسلام، ٢٧٦/٨.
٢٥ - التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول، صديق حسن خان، ٥١١/١.
٢٦- موسوعة الفرق المنتسبة إلى الإسلام، ٢٥٢/٨.
٢٧- المصدر السابق، ٢٥٣/٨.
٢٨- المصدر السابق، ٢٥٢/٨.
٢٩ - المصدر السابق، ٤٩٢/٧.